



Article QR

علاقة الإنسان بالكون والفضرة على أساس من التوازن والرحمة والمسؤولية
في ضوء السيرة النبوية

*The Human Relationship with the Universe and Nature: Foundations of
Balance, Mercy, and Responsibility in the Light of the Prophetic Sīrah*

Dr. Muhammad Zubair Akmal¹

Article History

Received
02-05-2026

Accepted
02-05-2026

Published
06-06-2026

Abstract & Indexing

WORLD of
JOURNALS



ACADEMIA



Abstract

The Prophetic Biography (Sīrah) offers a comprehensive worldview that frames the relationship between human beings and the universe on the principles of justice, mercy, and balance. It presents the human being as God's vicegerent (khalīfah) on earth, entrusted with moral responsibility toward nature, the environment, and all living beings extending beyond material development to the preservation of cosmic order. This paper aims to examine the ethical and intellectual foundations established by the Prophet ﷺ for regulating the human–nature relationship, analyzing them in the light of the objectives of Islamic law (maqāsid al-sharī'ah) and contemporary environmental discourse. Employing a descriptive and analytical approach, the study draws on the Qur'an, the Prophetic Sunnah, and classical Islamic sources, with selective reference to modern environmental theories to highlight the holistic nature of the Prophetic vision. The study argues that the principle of "mercy to all creation" constitutes the core of the Prophetic environmental ethic. The Prophet's ﷺ guidance regarding water, animals, plants, air, and soil forms an integrated moral framework that may be described as Eco-Ethics of Fitrah. The paper further contends that contemporary environmental challenges cannot be effectively addressed without engaging this Prophetic paradigm, which harmonizes spiritual values with practical responsibility. The Prophetic Biography thus provides a sustainable and human-centered model for the relationship between humanity and nature, integrating religion, ethics, and environmental responsibility in the pursuit of balanced and sustainable life.

Keywords:

Prophetic Biography; Universe; Environment; Human Being; Fitrah; Balance; Environmental Ethics.

¹ Visiting Lecturer, The Islamic University of Bahawalpur. zubairakmalub@gmail.com



التمهيد

تمثل سيرة النبي ﷺ المنهج الإلهي الكامل في بناء العلاقة بين الإنسان وربّه، وبين الإنسان وسائر عناصر الكون من كائنات حيّة وجمادات ومظاهر طبيعة. فالسيرة النبوية ليست مجرد سجلّ تاريخي للأحداث، بل هي منظومة قيمية وتشريعية تعبّر عن الرؤية الإسلامية للوجود في أبعاده الروحية والمادية والأخلاقية. ومن أبرز ما تتضمنه هذه السيرة، التصور الشامل للإنسان بوصفه خليفة الله في الأرض، مكلفًا بعمارتها، ورعاية مخلوقاتهما، وتحقيق التوازن بين حاجاته المادية والتزاماته المعنوية.

لقد جاء الإسلام برسالة عالمية تتجاوز حدود الزمان والمكان، تؤكد أن الكون بكل عناصره خاضع لنظام دقيق وضعه الخالق سبحانه، وأن أيّ إخلال في هذا التوازن يعدّ خروجًا عن مقاصد الخلق. ويظهر هذا المفهوم بوضوح في قوله تعالى: ¹هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا. ² إذ تبرز الآية الكريمة مبدأ الاستعمار الإيجابي للأرض، أي عمارتها بما يحقق الخير والصلاح، لا الفساد والتدمير.

لقد جسّد النبي ﷺ هذا المفهوم في سيرته وسلوكه، حين جعل الإحسان إلى كل ذي روح عبادةً، وأقرّ للبيئة والكائنات بحقوقٍ تضمن استمرار الحياة بتوازنها الطبيعي. كما نهى عن كل فعلٍ يؤدي إلى الإفساد أو الإضرار بعناصر الكون، من نباتٍ أو حيوانٍ أو ماءٍ أو هواء. ³

وانطلاقًا من هذا التصور القرآني والنبوي، يسعى هذا البحث إلى بيان حقوق الكائنات في ضوء سيرة النبي ﷺ، من خلال دراسة العلاقة بين الإنسان والطبيعة والكون، وبيان الأسس الشرعية والأخلاقية التي تنظّم هذه العلاقة، وتبرز كيف أسس الإسلام لمنظومة بيئية متكاملة قوامها الرحمة والعدل والمسؤولية.

المبحث الأول:

التصور النبوي للكون والطبيعة

يستند التصور النبوي للكون إلى الإيمان العميق بأنّ جميع المخلوقات تسبّح بحمد خالقها، وأنها تشترك مع الإنسان في الخضوع لله تعالى. فالكون في الرؤية الإسلامية ليس ميدانًا جامدًا، بل كائن حيٌّ يعبّر عن الطاعة لله من خلال نظامه الدقيق وسننه الكونية. وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى: ⁴تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ. ⁵

هذا النصّ القرآني يرسم ملامح العلاقة الروحية بين الإنسان والكون، حيث يدرك المؤمن أنّ كلّ ذرة في الوجود تمجّد الخالق، مما يولد في نفسه شعورًا بالمسؤولية تجاه البيئة المحيطة به. وقد أكد النبي ﷺ هذا المفهوم عمليًا من خلال سلوكه اليومي؛ إذ كان يتعامل مع الكائنات والموارد الطبيعية بروح الرحمة والوعي البيئي العميق.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "قال رسول الله ﷺ: ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة". ⁶ وهذا الحديث يعبّر عن رؤية حضارية متقدمة تجعل العمل البيئي عبادةً، وتعطي للطبيعة قيمة دينية وأخلاقية.

قد دعا النبي ﷺ إلى احترام جميع مظاهر الحياة، حتى الجمادات، فنهى عن تلويث الماء، وعن قطع الشجر بغير حاجة، وعن تعذيب الحيوان أو تحميله ما لا يطيق. ⁷ إنّ هذه التعاليم النبوية تمثل أساسًا فكريًا وتشريعيًا لحماية البيئة، سبق المفاهيم الحديثة للحقوق البيئية بقرون عديدة.

ومن اللافت أنّ النبي ﷺ ربط بين صلاح الإنسان وصلاح البيئة، فكلما ارتقى الإنسان في إيمانه، انعكس ذلك على سلوكه تجاه الكائنات. وفي المقابل، فإنّ الفساد في الأرض نتيجة مباشرة لانحراف الإنسان عن منهج الله تعالى، كما قال سبحانه وتعالى: ⁸ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ. ⁹

عَبَّرَ النبي ﷺ عن مشاعر الألفة والمودة تجاه المخلوقات من حوله تعبيراً بليغاً، ويتجلى ذلك في حديثه حين عاد من غزوة تبوك، فلما اقترب من المدينة وبدا له جبل أُخْد قال: هذه طابة، وهذا أُخْد، جبلٌ يحبنا ونحبه،¹⁰ وطابة من الأسماء التي أُطلقت على المدينة المنورة.

وقد اتَّسم سلوك الصحابة رضي الله عنهم بعلاقة إنسانية رفيقة مع البيئة، يظهر ذلك جلياً في حين بلال رضي الله عنه إلى مكة، حيث كان يستحضر أوديتها ومياهها وجبالها ونباتاتها، معبراً عن شوقه بأبيات مشهورة، منها:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً

بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلٌ؟

وهل أردن يوماً مياةً مجتةً

وهل يبدون لي شامةً وطفيلٌ؟¹¹

بل إنَّ العلاقة بين الإنسان ومحيطه المكاني تتجاوز الإحساس البشري، إذ أخبر النبي ﷺ أنَّ المواضع التي كان يعبد الله فيها العبد الصالح تتأثر بفراقه، فقال: إذا مات العبد الصالح بكى عليه موضعان؛ موضع سجوده، وموضع صعود صلاته ودعوته.¹²

كما تُبرز السُّنة النبوية توجهات واضحة في مراعاة القيم الإنسانية والبيئية حتى في أوقات الحروب، فقد روى رباح بن ربيعة أنَّ النبي ﷺ مرَّ بامرأةٍ مقتولة في إحدى الغزوات، فأنكر ذلك وقال: ما كانت هذه لتقاتل"، ثم تأمل النبي ﷺ في وجوه أصحابه، ثم وجَّه أحدهم قائلاً: اذهب إلى خالد بن الوليد، وبلغه أمري بعدم التعرُّص للذرية، ولا للأجراء، ولا للنساء بالقتل¹³، ثم أوصى بعدم قتل النساء ولا الذرية ولا الأجراء. وكذلك وجَّه النبي ﷺ جيشه في غزوة مؤتة إلى الالتزام بجملته من الضوابط، منها: النهي عن قتل النساء والأطفال وكبار السن، وتحريم إحراق النخيل أو قطع الأشجار أو هدم البيوت.¹⁴ كما ورد عنه ﷺ النهي عن قتل أصحاب الصوامع المنقطعين للعبادة.¹⁵

وسار الخلفاء الراشدون على هذا النهج، فقد أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه القائد أسامة بن زيد رضي الله عنه عند إرساله للجيش، بجملته من القواعد الأخلاقية، منها: اجتناب الخيانة والغدر، وعدم قتل الأطفال أو النساء أو الشيوخ، والنهي عن إتلاف الأشجار المثمرة أو إحراقها، وعدم ذبح الحيوانات إلا لحاجة، مع ترك أهل العبادة وشأنهم. "لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، إلا للمأكلة، وسوف تمرون على قوم فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له، ولا تقطعوا نخلاً

ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً."¹⁶

وتُعدُّ هذه الوصايا إطاراً تشريعياً متكاملًا لأداب الجهاد في الإسلام، إذ تضمنت مبادئ تحافظ على الإنسان والبيئة حتى في أحلك الظروف. ومن هنا يبرز التساؤل عن مدى التزام بعض القوى المعاصرة بمثل هذه القيم في ممارستها العدوانية.

من خلال ذلك يتضح أنَّ النبي ﷺ قد أكَّد على صيانة البيئة ومكوناتها في سياق الحرب، فمن باب أولى أن يكون ذلك في حال السلم؛ حيث تزخر السُّنة النبوية بالتوجهات الداعية إلى المحافظة على البيئة.

ومن الجدير بالذكر أنَّ القرآن الكريم، وإن لم يكن كتاباً تخصصياً في العلوم التجريبية، إلا أنه جاء بمنهج شاملٍ ينظّم شؤون الدين والدنيا، كما قال تعالى: وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ¹⁷، ويهدف إلى بناء مجتمعٍ متكاملٍ تتوازن فيه الجوانب البيئية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والصحية.

المبحث الثاني:

وظيفة الاستخلاف ومسؤولياتها

يشكّل مفهوم الخلافة في الأرض أحد الأسس المركزية في التصور الإسلامي للإنسان والكون؛ إذ يحدد موقع الإنسان في الوجود، ويبين مسؤوليته في عمارة الأرض وحماية مكوناتها، وفقاً لقيم العدل والرحمة والاستخلاف. فالإنسان في المنظور القرآني ليس كائنًا متسلطاً على الطبيعة، بل وكيلٌ لله تعالى في إدارتها وصونها، قال سبحانه: ¹⁸ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً. ¹⁹

إنّ هذه الآية تمثل الأساس العقدي للتوظيف الإنساني في الكون، فهي تضع الإنسان في موقع التكليف لا التملك، والمشاركة لا السيطرة. وقد تجلّى هذا المفهوم في سيرة النبي ﷺ قولاً وفعلاً، حيث كان يُعلّم أصحابه أن الخلافة تعني الرعاية لا الاستغلال، وأنّ الحفاظ على التوازن البيئي هو من مقتضيات الإيمان بالله تعالى. ²⁰

أولاً: الإنسان بين العبادة والعمارة:

يربط الإسلام بين عبادة الله وعمارة الأرض، بحيث تصبح العملُ والإنتاجُ والعطاءُ جزءاً من العبادة، لا مجرد نشاط دنيوي. وقد قال النبي ﷺ: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها". ²¹ فهذا التوجيه النبوي يؤكد أنّ العمل الإيجابي في الأرض عبادة مستمرة حتى في أحلك الظروف، مما يعكس النظرة الإسلامية المتفائلة إلى الحياة والكون.

إنّ العلاقة بين الإنسان والطبيعة في سيرة النبي ﷺ علاقة تكامل لا تضاد؛ فالإنسان مأمور بتسخير الطبيعة لا لإفسادها، بل لتهدئتها واستثمارها بما يخدم الصالح العام. ومن هنا تتضح دلالة قوله تعالى: ²² وَسَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ. ²³ فالتسخير الإلهي تكريم للإنسان، لكنه مشروط بالأمانة والمسؤولية الأخلاقية.

ثانياً: البعد الأخلاقي في ممارسة الخلافة:

لقد وضع النبي ﷺ أسساً واضحة لممارسة الإنسان لدوره كخليفة في الأرض على ضوء القيم الأخلاقية العليا. فهو لم يدعُ إلى استغلال الموارد الطبيعية بلا حدود، بل حثّ على الاعتدال والتوازن. قال تعالى: ²⁴ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. ²⁵

وفي هذا الإطار، جسّد النبي ﷺ الاعتدال في حياته اليومية، فكان يقتصد في الماء حتى في الوضوء، كما رُوي أنه ﷺ توضأ بماءٍ واحد وقال: "لا تسرف في الماء ولو كنت على نهر جارٍ". ²⁶ إنّ هذا السلوك العملي النبوي يُعدّ قاعدة أخلاقية عالمية لحماية الموارد من الهدر، ويؤكد أنّ الوعي البيئي جزء من الإيمان.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة أنّ مبدأ "الخلافة البيئية" في الإسلام يشكل أساساً فلسفياً لنظرية التنمية المستدامة. ²⁷ فبينما تنطلق النظريات الغربية من منظور مادي يهدف إلى تحقيق المنفعة القصوى، فإن الإسلام يربط التنمية بالمسؤولية الشرعية والأخلاقية، ويضع للإنسان ضوابط تمنع طغيانه على البيئة أو إخلاله بتوازنها.

ثالثاً: التفاعل الإيجابي مع مظاهر الكون:

كان النبي ﷺ ينظر إلى مظاهر الكون بعين التأمل والإيمان، فيرى فيها دلائل القدرة الإلهية ووحدة الخلق، كما كان يحثّ أصحابه على النظر في آيات الله في السماء والأرض. قال تعالى: ²⁸ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. ²⁹ فهذا النظر ليس نظر تسليية، بل نظر تدبّر وتفكير يقود إلى المعرفة واليقين. وفي ضوء هذا التوجه، أسس النبي ﷺ ثقافة بيئية معرفية تقوم على الملاحظة والتفكير والاعتبار، لا على الجهل والتبذير. فهو ﷺ من أوائل من وضعوا قاعدة "عدم الضرر ولا ضرر" ³⁰ التي تشكل أصلاً قانونياً شاملاً يمنع الإضرار بالإنسان والطبيعة والكائنات.

وهكذا يظهر أن التصور النبوي للإنسان كخليفة في الأرض، يقوم على ثلاثة أركان مترابطة:

1. العبادة والعمارة معاً
2. الأمانة الأخلاقية في التعامل مع البيئة
3. التكامل مع مظاهر الكون لا الصراع معها

بذلك قدّم الإسلام من خلال سيرة النبي ﷺ نموذجًا حضاريًا متوازنًا يسبق الفلسفات البيئية الحديثة، ويجمع بين البعد الروحي والبعد المادي، وبين العلم والإيمان.

المبحث الثالث:

حقوق الكائنات الحيّة وغير الحيّة وأسس التعامل معها في ضوء السيرة النبوية

تميّزت سيرة النبي ﷺ بعمقها الإنساني والكوني، إذ لم تقف عند حقوق الإنسان فحسب، بل تجاوزتها إلى تقرير حقوق الكائنات الأخرى من حيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ، باعتبارها جزءًا من منظومة الخلق الإلهي الذي يقوم على الرحمة والعدل. وهذا الجانب من السيرة النبوية يُظهر بوضوح أن الرسالة الإسلامية ذات طابع شامل، ينظم علاقة الإنسان بكل ما حوله، ليعيش في انسجام مع الكون في ظل قيم الرحمة والتكريم. وهذه العلاقة تقوم على ثلاثة حقوق مترابطة: أولاً: حقوق الحيوان في سيرة النبي ﷺ:

تحتلّ الكائنات الحيّة مكانةً متميّزة في الفكر الإسلامي، فالحيوان ليس مجرد وسيلة للانتفاع المادي، بل مخلوق له كرامة وحقّ في الرفق والرعاية. وقد جسد النبي ﷺ هذا المفهوم عمليًا في مواقفه وتعاليمه، حيث قال: "في كل كبدٍ رطوبة أجر".³¹

وهذا الحديث يقرّر مبدأ الرحمة العامة، التي تشمل كلّ كائن حيٍّ يملك روحًا. وقد نهى النبي ﷺ عن تعذيب الحيوان أو ترويعه، فقال: "من قتل عصفورًا عبثًا عَجَّ إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب، إن فلانًا قتلني عبثًا ولم يقتلني لمنفعة".³²

ومن مظاهر الرعاية النبوية للحيوان أيضًا نهيه ﷺ عن التحميل الزائد على الدوابّ أو اتخاذها مقاعد للحديث، فقال: "إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم كراسي، فإنها مسخرة لكم لتبلغوا بها حاجة لم تكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس".³³ أورد الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله جملةً من الأحكام التي قرّرها فقهاء المسلمون في باب الرحمة بالحيوان، وهي أحكامٌ تدلّ على دقّة التشريع وسعته؛ ومن ذلك إلزام مالك الحيوان بالنفقة عليه، فإن قصر في ذلك ألزم بأحد أمور ثلاثة: إمّا بيعه لمن يقوم بحقه، أو الإنفاق عليه، أو إطلاقه في بيئته يجد فيها غذاءه وأمنه.³⁴

ويقرّر الإسلام مبدأ الرفق بوصفه قيمةً شاملةً تمتدّ إلى مختلف مجالات الحياة، فيغدو سمةً فارقةً للمؤمن، ومظهرًا من مظاهر كمال إيمانه، وعنصرًا يُضفي على العمل بُعدًا أخلاقيًا رفيعًا. وقد دلّت النصوص النبويّة على ذلك، كما في حديث عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها، حيث قال النبي ﷺ: "إنّ الله رفيقٌ يحبّ الرفق في الأمر كلّه، وجاء في روايةٍ أخرى أنّ الله تعالى يُثيب على الرفق ما لا يُثيب على العنف ولا على غيره.

وقد تضافرت الأحاديث على اعتبار الإحسان إلى الحيوان والرفق به لونا من ألوان العبادة التي يُنال بها عظيم الأجر، بل قد تكون سببًا في المغفرة؛ ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ ذكر امرأةً سقت كلبًا اشتدّ به العطش في يومٍ حارّ، فكان فعلها سببًا في مغفرة ذنوبها.³⁵

وفي المقابل، كما رفعت الشريعة منزلة الإحسان إلى الحيوان، فقد شدّدت في التحذير من الإساءة إليه وتعذيبه، وجعلت ذلك من كبائر الذنوب؛ فقد ورد في الصحيح أنّ امرأةً عُدّبت بسبب هرّة حبستها، فلم تُطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض. يقول رسول الله ﷺ: "عُدّبت امرأةٌ في هرّة، لم تطعمها، ولم تسقمها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض".³⁶ إنّ هذه الأحاديث لا تعبّر عن أخلاق فردية فحسب، بل تؤسس لقانون إسلامي للرفق بالحيوان، يقوم على قاعدة الرحمة والإحسان. وقد لاحظ بعض الدارسين الغربيين أنّ التعاليم النبوية في هذا المجال تسبق التشريعات الحديثة الخاصة بحقوق الحيوان بأكثر من اثني عشر قرنًا.³⁷

ثانيًا: حقوق النبات والبيئة الطبيعية:

لم تقتصر الرحمة النبوية على الحيوان، بل شملت النبات والبيئة بأكملها. فقد نهى النبي ﷺ عن قطع الأشجار بغير ضرورة. وعدّ ذلك نوعاً من الفساد في الأرض، حتى في أوقات الحرب قال: "لا تقتلوا امرأة، ولا وليداً، ولا كبيراً فانياً، ولا تقطعوا شجرةً مثمراً".³⁸

كما حثّ النبي ﷺ على تنمية الغطاء النباتي والاعتناء به، وجعل ذلك من الأعمال المستمرة الأجر؛ إذ بين أنّ المسلم إذا غرس شجرةً أو زرع زرعاً، فانتفع به طائرٌ أو إنسانٌ أو حيوان، كُتب له ثوابٌ صدقةٍ على قدر هذا الانتفاع. كما في قوله ﷺ: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة".³⁹ يُراد بالبيئة في التصوّر الإسلامي مفهومٌ شاملٌ يستوعب مختلف جوانب الحياة؛ إذ قد يتّسع مدلولها ليشمل الأرض التي يعيش عليها الإنسان والسماء التي تطلّته، وقد يضيق نطاقها ليقصر على محيطه المباشر كمسكنه ومقرّ عمله. وبعبارة موجزة، فهي مجموع ما يحيط بالإنسان من عناصر وكيانات، كالماء والهواء والكائنات الحيّة والجمادات، وهي الحيز الطبيعي الذي يزاوّل فيه نشاطه الإنساني بمختلف صورته، فيتفاعل معه تأثيراً وتأثراً، بما يفضي إلى تشكّل ما يُعرف بالبيئة المُشيّدة، التي تندرج ضمنها الأبعاد الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتكنولوجية.

وللبينة نسقٌ محكمٌ يقوم على التوازن والدقّة، أبدعه خالقٌ عليمٌ، ومدبّرٌ حكيمٌ، أجرى فيه سننّه على نظامٍ بالغ الإحكام والاتساق. صنّع الله الذي أتقن كلّ شيءٍ⁴⁰ غير أنّ تدخل الإنسان في البيئة كثيراً ما اتخذ طابعاً سلبياً أخلّ بتوازنها وأفسد عناصر جمالها، حتى بات يهدّد مواردها الحيّة وغير الحيّة على السواء، محدثاً خللاً واسع النطاق في منظومتها الطبيعية. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا السلوك بمصطلح "الإفساد في الأرض"، بينما تُطلق عليه الدراسات البيئية الحديثة مفهوم "التلوّث" وما يترتب عليه من اختلالات بيئية.

إنّ هذه النصوص تضع أساساً دينياً لحماية البيئة، وتجعل من الغرس والإحياء عملاً تعبدياً. بل يمكن القول إنّ الإسلام قد سبق المفهوم الحديث لـ"التمنية المستدامة" عبر هذه التوجهات النبوية التي تربط بين العمل البيئي والثواب الأخروي.

ثالثاً: حقوق الجمادات والموارد المادية:

حرّم الإسلام جميع صور الإفساد في الأرض، كما نهى عن كلّ مظاهر التخريب التي قد يُحدثها الإنسان في البيئة السليمة، بمختلف درجاتها وأنماطها؛ ابتداءً من السلوكيات اليومية كالتخلّص غير المنظّم من النفايات، وصولاً إلى آثار الحروب التي تُخلّف تشوّهاً في الملامح الجمالية للموارد الطبيعية التي يعيش فيها الإنسان. ويعود هذا التشديد إلى كون اختلال التوازن البيئي يُعدّ تهديداً مباشراً لمستقبل الإنسانية بأسرها واستقرارها؛ قال تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا⁴¹، وبين موقفه تعالى من المفسدين بقوله عزّ وجلّ: وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ⁴²، وقال الله تعالى: قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ⁴³

بل إنّ من القواعد الكلّية في الشريعة الإسلامية بيان خطورة الإفساد في الأرض وتجاوز حدود الله تعالى، لما يترتب على ذلك من خرابٍ وفسادٍ شاملٍ قد ينتهي إلى تهديد وجود الإنسان نفسه، لولا رحمة الله تعالى بعباده. وقد وضّح النبي ﷺ هذا المعنى في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: "مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان من في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقتنا ولم نُؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً".⁴⁴ ومن المدهش في السيرة النبوية أن الرحمة شملت حتى الجمادات، إذ نُقل عن النبي ﷺ أنه قال عن جبل أحد: "هذا أحدٌ جبلٌ يحبنا ونحبه".⁴⁵ وهذا النص يعبّر عن الرؤية الروحية للكون في الإسلام، حيث إنّ الجمادات ليست مجرد مادة صامتة، بل كائنات تدخل ضمن دائرة الحبّ الإلهي والتسبيح الكوني.

كما يظهر اهتمام النبي ﷺ بالمياه والهواء والطعام من خلال توجهاته في النظافة العامة ومنع التلوث، فقد نهى عن البول في الماء الراكد، وأمر بإكرام النعمة وعدم إهدارها، قائلاً: "كلوا واشربوا وتصدقوا في غير سرفٍ ولا مخيلة".⁴⁶ إن هذه التوجهات تمثل ما يُعرف في العصر الحديث بـ"الأخلاقيات البيئية" (Environmental Ethics)، وهي في جوهرها جزء أصيل من السنة النبوية قبل أن تكون موضوعاً فلسفياً معاصراً. وقد أكد العلماء المعاصرون أن الإسلام في سيرة نبيه ﷺ يقدم إطاراً تشريعياً متكاملًا لحماية البيئة يقوم على الرحمة، والاستخلاف، والتوازن.⁴⁷

المبحث الرابع:

التوازن البيئي والأخلاقي في السنة النبوية

يمثل مفهوم التوازن أحد أهم الركائز التي يقوم عليها النظام الكوني والإنساني في الرؤية الإسلامية. فقد خلق الله تعالى الكون في نظام دقيق محكم قائم على التناسق بين عناصره، كما قال سبحانه:⁴⁸ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ.⁴⁹ وهذا الميزان الكوني يعكس قانون العدل والتوازن في كل ما خلق الله، فلا إفراط ولا تفريط. وقد نقل النبي ﷺ هذا المبدأ الكوني إلى الحياة الإنسانية من خلال توجهاته العملية وسلوكه اليومي، فجعل الاعتدال والوسطية منهجًا شاملاً في التعامل مع الموارد الطبيعية، وفي العلاقات الإنسانية، وفي العبادة والسلوك.⁵⁰ ويظهر هذا التوازن في ثلاثة مجال مترابطة:

أولاً: التوازن في استخدام الموارد الطبيعية:

نهى الدين الإسلامي الحنيف عن الإسراف والتبذير، فهما جزءٌ أصيلٌ من ثقافة الإفساد والمُفسدين، قال عز وجل: إِنَّ الْمُبْتَدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كُفُورًا⁵¹، فروى البخاري في صحيحه، في كتاب اللباس: قال ﷺ: "كُلُوا، واشربوا، والبسوا، وتصدقوا، في غير إسرافٍ ولا مخيلة"⁵².

أكد النبي ﷺ على ضرورة الاقتصاد في استهلاك الموارد، ولو كانت متاحة بوفرة. فعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ مرَّ بسعدٍ وهو يتوضأ فقال: "ما هذا السرف يا سعد؟" قال: "أفي الوضوء إسراف؟" قال: "نعم، وإن كنت على نهر جارٍ".⁵³ يُعد هذا التوجيه النبوي من أوائل النصوص التي تضع قاعدة لما يُعرف اليوم بـ"الاستهلاك المستدام" (Sustainable Consumption)، الذي يهدف إلى تحقيق توازن بين الحاجات البشرية وحماية البيئة.⁵⁴ إن هذا المبدأ لا يقوم على الحرمان، بل على الوعي بأن الموارد أمانة يجب استثمارها بعدلٍ ورشد.

كذلك حرص النبي ﷺ على إرساء قاعدة التكافل في الموارد، فجعل الماء والنار والكأ مشاعاً عامًا لا يجوز احتكاره، فقال ﷺ: "الناس شركاء في ثلاث: الماء والكأ والنار".⁵⁵ وهذا النص يؤسس لمبدأ العدالة في توزيع الثروات الطبيعية، ويمنع الاستغلال الفردي للموارد العامة، وهو ما تسعى إليه التشريعات البيئية الحديثة.⁵⁶

ثانيًا: التوازن الأخلاقي في علاقة الإنسان بالكون:

لم يكن اهتمام النبي ﷺ بالبيئة مقتصرًا على الجانب المادي فحسب، بل شمل البعد الأخلاقي والروحي، فجعل الرحمة أساس التعامل مع كل مظاهر الحياة. قال ﷺ: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".⁵⁷

هذه الرحمة الشاملة هي الأساس الذي يحقق الانسجام بين الإنسان والكون. فهي لا تُمارس على الكائنات فقط، بل تتجلى في احترام النظام الطبيعي، وتجنب الإفساد، والمحافظة على النظافة والجمال، وهي كلها قيم أخلاقية بيئية. ومن الجوانب الأخلاقية في السنة النبوية أن النبي ﷺ ربط بين صلاح الإنسان الداخلي وصلاح البيئة المحيطة به؛ فالإنسان الصالح يحسن إلى ما حوله، أما الفاسد فيعيب بالبيئة كما يعيب بالقيم. قال تعالى:⁵⁸ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ.⁵⁹

وهذا يعني أن التوازن البيئي ليس مسألة تقنية فحسب، بل قضية إيمانية وأخلاقية. فكل عملٍ يحافظ على البيئة هو عبادة، وكل إفسادٍ فيها هو معصية. وقد أرسى النبي ﷺ هذا المبدأ حين قال: "الإيمان بضع وسبعون شعبة... أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق".⁶⁰ فجعل إزالة الأذى، أي حماية البيئة من الضرر، جزءاً من الإيمان ذاته، مما يؤكد أنّ الوعي البيئي في الإسلام مرتبط ارتباطاً جوهرياً بالقيم الدينية.

ثالثاً: التوازن بين الإنسان والكون في ضوء مقاصد الشريعة:

إنّ الشريعة الإسلامية تهدف إلى تحقيق المصالح الكبرى للإنسان والكون، وحفظ الضرورات الخمس: الدين، النفس، العقل، النسل، والمال. ولكن سيرة النبي ﷺ تكشف بُعداً سادساً ضمنياً هو حفظ البيئة، إذ لا يمكن حفظ هذه الضرورات إلا في بيئة صالحة متوازنة.

فالنبي ﷺ لم يقدم رؤية جزئية للعلاقة مع الطبيعة، بل رؤية كونية متكاملة تُعبّر عن الوسطية الشاملة في كل شيء. وهذه الوسطية هي التي تحقق الاستدامة البيئية والاجتماعية والأخلاقية معاً، بحيث يكون الإنسان مستخلفاً في الأرض، لا مستبداً بها.

وقد أشار عدد من الباحثين الغربيين إلى أنّ الفكر الإسلامي، كما يظهر في السيرة النبوية، يقدم نموذجاً فريداً لـ "الأيكولوجيا الروحية" (Spiritual Ecology)، التي تجمع بين العلم والإيمان، وبين المادة والروح.⁶¹

الخاتمة

يُظهر هذا البحث أنّ سيرة النبي ﷺ تمثل الإطار المتكامل لفهم علاقة الإنسان بالكون والطبيعة على أساسٍ من التوازن والرحمة والمسؤولية. فالرسول ﷺ لم يكن نبياً للبشر فحسب، بل معلماً للكون كله، يوجّه الإنسان إلى عمارة الأرض دون فساد، ويؤسس لنظامٍ بيئي وأخلاقي يحترم حقوق جميع الكائنات. ومن خلال مواقفه وأقواله تتجلى رؤية ربانية عميقة تجعل الطبيعة شريكاً للإنسان في تحقيق مقاصد الاستخلاف والعبادة، لا ميداناً للهيمنة أو الاستهلاك الجائر. فإنّ السيرة النبوية تقدّم نموذجاً إنسانياً راقياً للعلاقة المتبادلة بين الإنسان والطبيعة، يؤسس لتكاملٍ بين الدين والعلم والإنسانية في سبيل تحقيق استدامة الحياة وعمارة الأرض وفق منهجٍ إلهيٍّ رحيم.

النتائج:

1. يتبين أن العلاقة بين الإنسان والكون في التصور النبوي علاقةٌ تكاملية لا تصادم، قوامها العدل والرحمة.
2. سيرة النبي ﷺ قدّمت نموذجاً عملياً للوعي البيئي المبكر، من خلال حفظ الماء، ورعاية الحيوان، وصيانة النبات، واحترام الجماد.
3. إنّ مفهوم الخلافة في الأرض في المنظور النبوي يقوم على ثلاث ركائز: المسؤولية، والعبادة، والإصلاح.
4. ترتبط حماية البيئة في الإسلام بالقيم الإيمانية، مما يجعل الالتزام البيئي عبادةً لا مجرد سلوك اجتماعي.
5. السيرة النبوية أسست لمبدأ "الحقوق الكونية"، أي شمول الرحمة الإلهية لجميع المخلوقات دون تمييز.

التوصيات:

1. ضرورة إدماج القيم البيئية المستمدة من السيرة النبوية في المناهج التعليمية والبحث العلمي.
2. إنشاء مراكز دراسات متخصصة في البيئة من منظور إسلامي تُعنى بجمع النصوص النبوية وتحليلها علمياً.
3. تشجيع المؤتمرات الدولية على تناول الوعي البيئي في الفكر الإسلامي بما يعزز الحوار بين الحضارات حول حماية الكوكب.
4. دعم حملات توعوية تُبرز أن رعاية الكائنات والطبيعة عبادةٌ ومسؤولية شرعية وأخلاقية.

English References

1. Abdel Haleem, M. A. S. (2004). *The Qur'an: A New Translation*. Oxford: Oxford University Press.
2. Al-Dien, M. I. (2000). *Islamic Environmental Ethics, Law and Society*. London: Routledge.
3. Foltz, R. C. (2006). *Animals in Islamic Tradition and Muslim Cultures*. Oxford: Oneworld Publications.
4. Foltz, R. C., Denny, F. M., & Baharuddin, A. (Eds.). (2003). *Islam and Ecology: A Bestowed Trust*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
5. Khalid, F. M., & O'Brien, J. (Eds.). (1992). *Islam and Ecology*. London: Cassell.
6. Nasr, S. H. (1968). *Man and Nature: The Spiritual Crisis of Modern Man*. London: Allen & Unwin.
7. Nasr, S. H. (1996). *Religion and the Order of Nature*. Oxford: Oxford University Press.
8. Sardar, Z. (1991). *Exploring Islam: Essays on Muslim Tradition and Modernity*. London: Grey Seal.
9. Shafiq, M. (2001). *Environmental Ethics: An Islamic Perspective*. New York: American Trust Publications.
10. Winter, T. (Ed.). (2008). *The Cambridge Companion to Classical Islamic Theology*. Cambridge: Cambridge University Press.

مصادر ومراجع:

- 1 سورة هود 61:11-
- 2 ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (تونس: دار التونسية للنشر، 1984م)، 12/145-
- 3 عبد الحليم محمود، الإسلام والبيئة، (القاهرة: دار الشروق، 1990م)، ص 57-
- 4 سورة الإسراء 44:17-
- 5 الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (بيروت: دار الفكر، 1987م)، 15/202-
- 6 البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (الرياض: دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ)، كتاب الزرع، حديث رقم: 2320-
- 7 النووي، يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1995م)، 14/40-
- 8 سورة الروم 41:30-
- 9 Seyyed Hossein Nasr (1968), Man and Nature: The Spiritual Crisis of Modern Man, London: Allen & Unwin, p. 102-
- 10 البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (الرياض: دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ)، كتاب الزرع، حديث رقم: 4422-
- 11 القرضاوي، يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الأولى)، ص 30-
- 12 ابن المبارك، عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي المروزي، الزهد والرقائق، ص 114، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، (بيروت: دار الكتب العلمية)، رقم الحديث: 336-
- 13 مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، 3/1364، رقم الحديث: 1744-
- 14 أيضاً، رقم الحديث: 1731-
- 15 ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد، المصنف، كتاب الجهاد، باب: من نَهَى عن قتله في دار الحرب، تحقيق: يوسف كمال الحوت، (الرياض: مكتبة الرشد، 1409هـ)، 6/484-
- 16 الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، تحقيق: نخبة من العلماء، قوبلت هذه الطبعة على النسخة المطبوعة بمطبعة "بريل" بمدينة ليدن سنة 1879م، ص 335-
- 17 سورة النمل 75:27-
- 18 سورة البقرة 30:02-
- 19 ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار المعرفة، 1987م)، 1/112-
- 20 القرضاوي، يوسف، الإنسان والبيئة في الإسلام، (القاهرة: مكتبة وهبة)، ص 25-
- 21 أحمد بن حنبل، المسند، رقم الحديث: 12981-
- 22 سورة الجاثية 13:45-
- 23 الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (بيروت: دار الفكر، 1987م)، 21/37-
- 24 سورة الأعراف 31:07-
- 25 الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ج 14، (بيروت: دار الفكر، 1981م)، 14/222-
- 26 ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، السنن، كتاب الطهارة، رقم الحديث:
- 27 Mawil Izzi Dien (2000), Islamic Environmental Ethics, Law and Society, Cambridge: The Islamic Foundation, p. 88-
- 28 سورة يونس 101:10-
- 29 القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002م)، 8/88-
- 30 مالك بن أنس، الموطأ، كتاب الأفضية، رقم الحديث: 1399-

- 31 البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (الرياض: دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ)، كتاب الزرع، حديث رقم: 2363-
- 32 النسائي، أحمد بن شعيب، السنن الكبرى، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1991م)، 207/8-
- 33 مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، رقم الحديث: 2110-
- 34 مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، ص 113-
- 35 مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، 1761/4، رقم الحديث: 2245-
- 36 أيضاً، باب تحريم قتل الهرة، رقم الحديث: 2243.
- 37 Richard Foltz (2006), *Animals in Islamic Tradition and Muslim Cultures*, Oxford: Oneworld Publications, p. 37-
- 38 مالك بن أنس، الموطأ، كتاب الجهاد، رقم الحديث: 982-
- 39 البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (الرياض: دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ)، كتاب الزرع، حديث رقم: 2320-
- 40 سورة النمل 88:27-
- 41 سورة الشمس 10:91-
- 42 سورة البقرة 205:02-
- 43 سورة البقرة 60:02-
- 44 البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (الرياض: دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ)، كتاب الزرع، حديث رقم: 2493-
- 45 مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، رقم الحديث: 1393-
- 46 ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، السنن، كتاب الأظعمة، رقم الحديث: 3351-
- 47 Mawil Izzi Dien (2000), *Islamic Environmental Ethics, Law and Society*, Cambridge: The Islamic Foundation, p. 88.
- 48 سورة الرحمن 07:55-
- 49 الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج 27، (بيروت: دار الفكر، 1987م)، ص 112-
- 50 الغزالي، محمد، فقه السيرة، (القاهرة: دار الشروق، 1998م)، ص 203-
- 51 سورة الإسراء 27:17-
- 52 البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (الرياض: دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ)، كتاب الزرع، حديث رقم: 2582-
- 53 ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، السنن، كتاب الطهارة، رقم الحديث: 425-
- 54 Farooq Hassan, "Environmental Ethics in Islam," *Islamic Quarterly* 34, no. 3 (1990): 150-
- 55 ابو داؤد، سليمان بن الأشعث السجستاني، السنن، كتاب البيوع، رقم الحديث: 3477-
- 56 Joseph Lumbard, *Islam, Fundamentalism, and the Environment* (Harvard University Press, 2003), p. 45.
- 57 الترمذي، محمد بن عيسى بن سؤرة، السنن، كتاب البر والصلة، رقم الحديث: 1924-
- 58 سورة الروم 41:30-
- 59 ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار المعرفة، 1987م)، 243/6-
- 60 مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، كتاب الايمان، رقم الحديث: 35-
- 61 Seyyed Hossein Nasr (1996), *Religion and the Order of Nature*, Oxford: Oxford University Press, p. 112.